فلسفة الحياة

لأحمد أمين

لقد سبق الكتاب وجفّ القلم الأزلي على علم الله فما أتينا الى هذه الدنيا إلاّ ليمثل كلٌّ واحد منا فصلاً من معاني الشقاء الإنساني في تلك الثياب التي هي ملك لصاحب المسرح، لا نخلعها ونلبسها بل يخلعنا بعضها ليلبسنا بعضها الآخر. فلسنا نبتدع ولكن يُلقى علينا وما نحن بمخترعين ولكننا نحتذي، والرواية موضوعة تامة قبل ممثليها. وضعها ذلك القلم الأعلى الذي كتب مقادير كل شيء كان أو يكون حتى تُمحى من صفحة الأرض هذه الأحرف السوداء المتحركة والساكنة...[1]

والمشكلة الإنسانية الكبرى ان كل انسان يريد أن يكون بطل الرواية ومَثَلها البكر حتى ذلك الشخص الذي جيء به لتنزل عليه اللعنة في سياقها. غير أن الرواية مفصّلة من قبل، ويأتي فصل اللعنة كما هو بأطرافه وحواشيه وأسبابه ونتائجه فينصب على ممثله جملة واحدة على وجه لا يحسّ ولا يُرى ولا يُدفع كما يلبسه النوم فإذا هو يفتل فيه فتلا وإذا رجل على أعين الناس باللعنة حال وباللعنة مرتحل.

النوم والقَدَر والموت كالشيء الواحد أو ثلاثتها أجزاء لشيء واحد، فالنوم غفلة تُخرج الحيّ هنيهة من الحياة كلها إلى حالة أخرى، والموت غفلة تخرجه من الحياة كلها إلى حياة أخرى، والقدر منزلة بين المنزلتين يقع هيّنا على أهل

1- كناية عند الناس.

السعادة بأسلوب النوم ويجيء لأهل الشقاء عنيفا في أسلوب الموت، ولن يجلب شيئا أو يدفع عن نفسه شيئا من هذه الثلاثة إلا الذي لم يُخلق على الأرض، ذلك الذي يستطيع أن يفتح عينيه على الليل والنهار فلا ينام، أو يحفظ نفسه على الصغر والأكبر فلا يموت، أو يضرب بيديه على مدار الفلك فيُمسكه ما شاء أو يُرسله.

جئنا إلى هذه الحياة غير مخيّرين ونذهب غير مخيرين إن طوعا وإن كرها؛ فمدّ يدك بالرضا والمتابعة للأقدار أو انزعها إن شئت فإنك على الطاعة ما أنت على الكره وعلى الرضا ما أنت على الغضب؛ ولن تعرف في مذاهب القدر إذا أنت أقبلت أو أدبرت أيّ وجهيك هو الوجه، فقد تكون مقبلا والمنفعة من ورائك أو مدبرا والمنفعة أمامك مع ذلك يرمي بك في الجهتين أيّهما شاء.

وحريّ بمن يوقن انه لم يولد بذاته أن لا يشك في انه لم يولد لذاته؛ وإنما هي الغاية المقدورة المتعينة فلا الخلق يتركونك لنفسك ولا الخالق تارك نفسك لك.

* * *